فن الإيجابية في السيرة النبوية

الثلاثاء 1 يونيو 2021 08:59 م

تعريف الإيجابية :

هى اقتناع عقلى ودافع نفسى وجهد بدنى ، به لا يكتفى المرء بتنفيذ الواجب بل يبادر في طلبه ، ولا يرضى بمجرد أدائه بل يتقنه ، ويضيف إلى العمل المتقن روحاً وفعالية ، دون جفاء أو تبرم أو استثقال .

وبهذا المعنى للإيجابية كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإيجابي الأول ، ولقد ورثها لأصحابه الكرام رضوان الله عليهم ، فهو معلمهم ، وزعيمهم وقدوتهم ،

وفيما يلي ثلاثة أمثلة يتبين من خلالها كيف كان صلى الله عليه وسلم يزرع الإيجابية في عقول أصحابه ومشاعرهم لتنطق بها حواسهم .

أولا : الرسول يريدها إيجابية مطلقة :

روى الإمام البخارى عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
(إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) .

وتتجلى روعة هذا الحديث الذى رغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم على غرس فسيلة النخيل وهى التى لا اله تؤتى ثمارها في الحياة الدنيا إلا بعد سنوات ، ومع اليقين باستحالة أن ينتفع بها أحد والقيامة قائمة ، ومن ثم يتضمن هذا الحديث الدلالات الآتية :

أ - دل هذا الحديث على الإيجابية المطلقة التي لا يتقيد فيها العمل بمدة محددة ولا بزمن محدود ، ولا بثمرة مرتقبة ، فقط الترغيب فى اغتنام آخر فرصة من الحياة الدنيا

ب - المسلم الإيجابى قلبه معلق بالمثوبة متطلع للأجر ، يثق بأن أجره ممتد إلى ما بعد انقضاء عمره ، وذلك كله لا يكون بالأمنيات ولا يتحقق بالشفاعات ، وإنما ميدانه العمل ، قال الله تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) سورة التوبة: 105 .

ج - المسلم الإيجابى هو من أدرك رسالته وعرف أنه لم يخلق عبثاً ولم يترك هملاً ، بل هو حامل رسالة ومبلغ أمانة ، ومن ثم فلا مكان عنده لنوم ولا كسل ،

وإيجابيته هذه أداء للواجب فضلا عن كونها معذرة إلى الله عز وجل من التقصير ، قال تعالى : (وَإِذْ قَالَتْ أمة منهم لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ معذبهم عذابا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) الأعراف : 164

ثانيا : الرسول يزرع الإيجابية في حياة أصحابه :

روى الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا ؟) ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : أَنَا .

قَالَ صلى الله عليه وسلم : (فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟) ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : أَنَا .

قَالَ صلى الله عليه وسلم : (فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا ؟) ، قَالَ أَبُو بَكْر رضى الله عنه : أَنَا
قَالَ صلى الله عليه وسلم : (فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا ؟) ، قَالَ أَبُو بَكْر رضى الله عنه : أَنَا
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : (مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّة) .

يحكى هذا الحديث عن برنامج تربوي خاص ، يطرحه الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه الكرام ، في وقت مخصوص ، ليحقق اهدافا مخصوصة ، وبيان ذلك في الآتي :

أ - فى بداية يوم جديد وبعد صلاة الفجر التى لا يحضرها منافق ، يدعوا الرسول أصحابه ليقتربوا منه وليتفوا حوله ، ليكونوا فى ذمة الله وحفظه ، ويوجه عدة أسئلة إليهم يحاسبهم أو يتابعهم في تنفيذ أعمال هي صيام النافلة ، وإتباع الجنازة ، وإطعام الفقير ، وعيادة المريض .

ب - ويريد بذلك صلى الله عليه وسلم أن يشحذ همم أصحابه ويذكى طموحهم ، وبالتالى يدفعهم إلى البذل والعمل ، وانتهاز الفرص واستثمار الواقع ، فإذا كان اهتمامه بنوافل الأعمال ورغائبها هكذا ، فكيف يكون الحال بشأن أركان الدين وفرائضه فلا شك ستكون المحاسبة أشد والمتابعة أقوى ، وبذلك يستهدف وصولهم إلى الإيجابية بمعناها السابق .

ج - قد يشعر المرء من أول وهلة باستحالة تنفيذ الأسئلة التى يطرحها الرسول على أصحابه ، أو على الأقل بصعوبتها ، وخاصة انه لم يكن قد مضى من الوقت بعد صلاة الفجر إلا لحظات ، فمتى وكيف تتبع الجنائز ويطعم المسكين ويعاد المريض ويتحدد الصائم من المفطر ، إلا أن أبو بكر الصديق يقف ويعلن حال إجابته على كل سؤال انه نفذ المطلوب ، ومن ثم يستطيع غيره أن يفعلها ، ويضحى البرنامج الذي وضعه رسول الله مثاليا في رفع همة أصحابه وتحقيق مهارة الإيجابية لديهم .

د - وكانت لهذه النوافل التى اختارها المصطفى ليتابع أداء أصحابه لها قيمة تربوية خاصة ، فهي زاد المصلحين للوصول إلى قمة الإيجابية التي هي الطريق إلى هداية الأفراد وإصلاح المجتمعات وتحكيم الشريعة ،

فالصوم السبيل إلى التقوى ووسيلة لضبط شهوات الشباب فالصوم جنة من الخطأ ووجاء لمن لم يستطع الزواج ، وإتباع الجنازة يذكر بالموت ويزهد فى الدنيا ويرفع الهمة إلى العمل الصالح استعدادا للقاء الله ، وإطعام الفقير وعيادة المريض هما مثالين للتكافل الواجب بين المسلمين الذين يسعى بذمتهم أدناهم وهم كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

هـ - وهنا تبرز عبقرية الصديق أبو بكر لكونه جمع أعمال الخير الكثيرة فى يوم واحد ، ويستحق بشرى الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال عن هذه الأعمال (ما اجتمعن فى امرئ إلا دخل الجنة) فهنيئا لأبي بكر ، وهنيئا لكل من اتبع سنة النبي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده صلى الله عليه وسلم .

ثالثا : صورة لإيجابية الصحابة ذكورا وإناث :

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُجَوِّبٌ بِهِ عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ لَهُ ، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلًا رَامِيًا شَدِيدَ القِدِّ، يَكْسِرُ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا، وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الجَعْبَةُ مِنَ النَّبْلِ، فَيَقُولُ: « انْشُرْهَا لأَبِي طَلْحَةَ ».

فَأَشْرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ إِلَى القَوْمِ ، فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، لاَ تُشْرِفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ القَوْمِ ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ ،

وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ، وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ ، أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تُنْقِزَانِ القِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا ، تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَآنِهَا ، ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ ، وَلَقَدْ وَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدَيْ أَبِي طَلْحَةَ إِمَّا مَرَّتَيْنِ وَإِمَّا ثَلاَثًا) .

هذا مشهد لجانب من يَوْمُ أُحُد حينما حاصر المشركون رسول الله صلى الله عليه ، يقطع بالمستوى الرفيع من الإيجابية التي وصل إليها أصحابه رجالا ونساء أثمرت أن يضحوا بأنفسهم في سبيل الله ، وبيان ذلك في الآتي :

أ - أهم ما يميز المسلم الإيجابى أنه ذو همة عالية ، يرمق أعلى الجنة ويرجوها ، يحب رسوله صلى الله عليه وسلم ويتخذه قدوة ويفديه بروحه وولده وأمه وأبيه ، عن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) رواه البخاري ومسلم .

ب - وقد ظهر ذلك الحب بصورة عملية حينما حاصر المشركون الرسول ومن معه فى أحد ، إذ كان أصحابه رضوان الله عليهم ويفدونه بأرواحهم ويتلذذون بأصناف العذاب لينجو هو صلى الله عليه وسلم ويستشهدوا هم .

ج - فقام أبو طلحة يسور نفسه بين يديه صلى الله عليه وسلم - ويرفع صدره ليقيه من سهام العدو، ويقول:" نحرى دون نحرك يا رسول الله " ، وعرضت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -- صخرة من الجبل فنهض أبو طلحة إليها ليعلوها فلم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض عليه، فقال صلى الله عليه وسلم : (أوجب طلحة) أي وجبت الجنة

د - فى هذه المعركة ظهرت بطولات النساء وصدق إيمانهن ، إذ أثبت أنهن خرجن لكي يسقين العطشى ويداوين الجرحى ومنهن من قامت برد ضربات المشركين الموجهة للرسول صلى الله عليه وسلم ،

وممن شاركن في غزوة أحد أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ، وأم عمارة ، وحمنة بنت جحش الأسدية ، وأم سليط، وأم سليم .

وثبت كذلك أن امرأة من بنى دينار أصيب زوجها وأخوها وأبوها ، فلما نعوهم لها قالت: " ما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ ، قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل - أي صغيرة - " .

رابعا : الإيجابية فريضة لتحقيق منهج الإسلام :

أ - إن الإسلام منهج حياة واقعية، لا تكفي فيه المشاعر والنيات ما لم تتحول إلى حركة واقعية ، إنما يتحقق في حياة البشر بجهدهم البشري ، وفي حدود طاقتهم البشرية .

ب - ويبدأ العمل بالمنهج بأن تحمله مجموعة من البشر ، تؤمن به إيمانا كاملا ، وتستقيم عليه وتجعله وظيفة حياتها وغاية آمالها ، وتجهد لتحقيقه فى قلوب الآخرين وفي حياتهم العملية كذلك ; وتجاهد لهذه الغاية بحيث لا تستبقي جهدا ولا طاقة ، وهذه هي الإيجابية المنشودة .